

أ. محمد القديري

باحث وصحفي - دولة الكويت
alqadirigallery@uahoo.com

المهلب بن أبي صفرة مثال للدبلوماسية العمانية العالمية

يرجع نسب المهلب بن أبي صفرة الأزدي العماني العربي المسلم إلى قبيلة الأزد التي هاجرت من اليمن، بعد انهيار سد مأرب، إلى عمان بزعامة مالك بن فهم، وانتشر أبنائها بعد ذلك في عمان وحواضر العراق المختلفة كالبحرين وبغداد والنجف والكوفة. والمهالبة أسرة من نسل الزعيم العربي ظالم بن سارق، الملقب بأبي صفرة. وقد خلف أبو صفرة عدداً من الأبناء والبنات منهم القائد والفارس المهلب بن أبي صفرة الذي ولد سنة تسعة للهجرة، ونصّب والياً وعمره لا يتجاوز ٢٧ عاماً.

ورث المهلب مجد أبيه في قيادة الفتوحات الإسلامية في بلاد فارس وشرقها حتى حدود الهند. وفي عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان استمرت الفتوحات الإسلامية شرقاً بقيادة المهلب بن أبي صفرة، الذي ضم إلى الدولة الإسلامية منطقة خراسان وما جاورها كسمرقند وبخارى. وبعد وفاة الخليفة الأموي يزيد بن معاوية، وبداية الفتنة في الدولة الأموية، ترك المهلب خراسان وانسحب منها بسلام إلى البصرة. وعندما هاجم الأزارقة مدينة البصرة وما حولها وعانوا فيها فساداً وأهلكوا الحرث والنسل، طلب أهلها النجدة من المهلب وأبنائه، الذين تمكنوا من حماية البصرة من الأزارقة بل وقتلوا قائدهم قطري بن الفجاءة ولاحقوا فلوله حتى منطقة كرمان - ما يعرف بإيران حالياً -. وبعد وفاة المهلب بن أبي صفرة عام ٨٢هـ، تولى أبنائه الفتوحات الإسلامية وولاية الأمصار في شرق الإمبراطورية الإسلامية وغربها، ولكثرة وجود المهلب وأبنائه وأحفاده في البصرة، ودوره في تحريرها من الأعداء سميت بـ "بصرة المهلب" كما دون وكتب المؤرخون.

وإن كان المهلب بن أبي صفرة يجسد فترة خالدة في التاريخ العماني الممتد عبر قرون طويلة، فإن هناك فرسانا آخرين يمثلون الحضارة العمانية الأصيلة في التاريخ والأدب والفن والدبلوماسية والفقه والاقتصاد وغيره. وأود هنا أن أتحدث عن فارس آخر في الحقل الدبلوماسي والسياسي والاقتصادي، رفع راية عمان في المحافل الدولية، وفتح عيون دول العالم في منتصف القرن التاسع عشر على أهمية عمان في التاريخ الحديث، وهو أول مبعوث سياسي دبلوماسي عربي إسلامي في بلاط واشنطن دي سي، وقد كتبت سابقا عن هذا الفارس في الصحافة الكويتية. إنه أحمد بن النعمان أو النعماني الذي عاش في عهد السيد سعيد بن سلطان ١٨٠٤ - ١٨٥٦ م. ولد أحمد بن النعمان بن محسن بن عبدالله الكعبي البحراني في البصرة في عام ١٧٩٠ م، وترعرع في جنباتها، وتعلم فيها، ثم وصل إلى مكانة الكاتب والسكرتير لدى جناب السيد سعيد بن سلطان حاكم إمبراطورية عمان في ذلك الوقت. ولم تكن العلاقات الأمريكية العربية معروفة على المستوى الدولي آنذاك، وإنما كانت هناك اتصالات بين المغرب والولايات المتحدة، تعود إلى عام ١٧٧٧ م. وبعد توقيع اتفاقية التجارة بين عمان وأمريكا في ١٨٢٣ م، قرر السيد سعيد بن سلطان دفعها إلى مستوى أعلى، حين قرر إرسال مبعوث دبلوماسي وتجاري على مستوى رفيع إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

كانت مهمة المبعوث العماني تسليم رسالة من زعيم الإمبراطورية العمانية إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، مارتن فان بورن، وتقديم الهدايا التي تعبّر عن غنى ورقّي وعظمة الإمبراطورية العمانية، وهي: جوادان عربيان أصيلان، وجواهر نفيسة منها لؤلؤتان من الحجم الكبير الكمثري، وعقود من اللؤلؤ الطبيعي، و١٢٠ قطعة ألماس كبيرة تزن ١٨ قراطا، وسيف سعدي مطعم بالذهب، وعطورات فاخرة متنوعة، وتوابل من جزيرة التوابل من عاصمة الإمبراطورية ذاك الوقت زنجبار، وشالات كشميرية وقطع سجاد إيراني بديعة الصنع والنقوش.

وصلت السفينة سلطنة التي تحمل المبعوث العماني إلى مدينة نيويورك في ٢٠ من إبريل عام ١٨٤٠ م، بعد رحلة طويلة من زنجبار استمرت ٣ أشهر. وبعد أخذ ورد طويلين في الكونغرس الأمريكي ودوائر الحكومة الأمريكية، قررت الإدارة

الأمريكية قبول الهدايا وإرسال هدية مقابلة من الرئيس الأمريكي إلى سلطان عمان، وهي عبارة عن باخرة حديثة مؤثثة، وبنادق ومسدسات وغيرها. ولقد جاءت هذه الرحلة إدراكاً من السيد سعيد بن سلطان لأهمية دور الولايات المتحدة في المنطقة، ومستقبل تطور العلاقات التجارية والدولية. فبعد هذه الزيارة نشطت الدبلوماسية الأوروبية في فتح مكاتب قنصلية وتجارية في مسقط وزنجبار. واستمر الدبلوماسي المبعوث الخاص أحمد بن النعمان يعمل لدى السيد سعيد حتى وفاته ١٨٥٦م، ثم عمل مع خليفته في زنجبار السلطان ماجد بن سعيد.

وقد يتساءل بعضهم، لماذا اهتم الطرفان العماني والأمريكي بتعزيز علاقتهما الدبلوماسية والتجارية في ذلك الوقت؟ والإجابة على هذا التساؤل تكمن في القوة البحرية العمانية مقارنة بالقوة البحرية الأمريكية في منتصف القرن التاسع عشر. فقد نشرت جريدة ألتون أوبزيرفر الأمريكية نقلاً عن جريدة نيويورك إكسبرس بتاريخ ٩ مارس ١٨٢٧م، مقالا يعرف بمسقط - عمان والقوة التجارية والعسكرية الكبيرة للسيد سعيد بن سلطان. ويشير المقال إلى أن الحاجة كانت ملحة في الدوائر الأمريكية للحصول على معلومات عن عمان، والمنطقة بشكل عام، عقب توقيع الاتفاقية التجارية العمانية الأمريكية سنة ١٨٢٣م. فقد صوّر المقال، الذي حمل عنوان: (مسقط وأسطولها وتجارتها)، للقارئ الأمريكي قوة عمان البحرية والاقتصادية بشكل مهيب، إذ ورد فيه "لو علم أي من القراء أن سلطان مسقط يملك قوة بحرية تكاد تكون بحجم وضخامة البحرية الأمريكية ربما ارتاب في ذلك ما لم يطلع على الحقائق بنفسه، فالسيد سعيد يمتلك قوة بحرية تمنحه يدًا طويلة في كل موانئ شرق أفريقيا والبحر الأحمر والخليج العربي، وتتكون هذه القوى البحرية من سفن يتراوح عددها بين سبعين إلى ثمانين سفينة شراعية، تحمل عددًا من المدافع ما يربو إلى ٧٤ مدفعًا، ويمارس ضباط هذه القوة البحرية المراقبة القمرية، ولديهم أجهزة مقاسات بحرية ممتازة. ومنذ توقيع اتفاقنا التجاري مع السيد سعيد ١٨٢٣م، بدأت سفننا بالتجارة الرائجة هناك على الرغم من أن تجارنا يواجهون منافسة كبيرة من البريطانيين وغيرهم الذين يستفيدون من ممتلكاتهم في شبه القارة الهندية".

فهكذا تكمن أهمية الزيارة التي قام بها المبعوث الدبلوماسي التجاري للسيد سعيد بن سلطان إلى نيويورك وواشنطن دي سي، في أنها محاولة لإيجاد مناطق نفوذ لدى الأمريكان وتأسيس مشاريع تجارية معهم. فكان للسيد سعيد بن سلطان رؤية بعيدة بالذهاب إلى هذه الدول، وإقامة علاقات دبلوماسية وتجارية معها؛ لكي يحافظ على نفوذه وعلاقاته الدولية في ذلك الوقت؛ نظرا للتنافس التجاري بين الدول الكبرى آنذاك: فرنسا وبريطانيا والبرتغال وإسبانيا وهولندا.